العـالم يختارونه، وكذلك السماح لهم بالعودة الى وطنهم، اذا خاب أملهم في بلدان الهجرة وقرروا العودة؛ اي تماماً كما يتصرف معظم دول العالم في مثل هذه الحالات. واذا تمّ ذلك، سيتولى المهاجرون انفسهم التصدي لمؤامرة التهجير واحباطها. ان هجرة اليهود من روسيا، القيصرية او السوفياتية، مستمرة منذ ما يزيد على قرن، وان كانت تقوى تارة وتخفّ طوراً، تبعاً للظروف. ودائماً، فضّلت اكثرية اولئـك المهـاجـرين الاتجاه الى اوروبا الغربية او الاميركتين، عدا قلّة منهم اختارت فلسطين، ثمّ اسرائيل. وليس هنالك ما يبرّر الاعتقاد بأن مثل هذه الاتجاهات قد تتغير في المستقبل، اي ان اكثرية اولئك ستبقى تفضل، في المستقبل، الاتجاه نحو الغرب، بدلاً من اسرائيل، عدا قلّة منهم ستلتحق بالكيان الصهيوني. الاّ ان مثل هذه القلة لا تشكل، ولم تشكل، مشكلة؛ فالتكاثر الطبيعي، فقط، بين الفلسطينيين، داخل اسرائيل وفي المناطق المحتلة، كاف للتصدي لها، والتغلب عليها.

ان مطالبة السوفيات بتغيير اجراءاتهم بشأن الهجرة هي اقل ما يمكن عمله، واقل ما ينبغي عليهم ان يستجيبوا له، دون ان يعتبر ذلك تدخلاً في شؤونهم، او اعتداء على سيادتهم، وانتقاصاً من قدرهم. بل ان العكس هو الصحيح؛ اذ ليس هنالك من فخر في الخضوع للاملاءات الامبريالية ـ الصهيـونية، خصوصاً من قبل دولة توصف بأنها عظمى. واذا كان هنالك اتجاه للالتزام بمواثيق حقـوق الانسـان، فليكن الالتزام كاملاً وحسب الاصول. وبعكس ذلك يكون الاتحاد السوفياتي، للأسف، يساهم في تنفيذ عمل عدائي ضد الفلسطينيين والعرب. كما انه يساعد بذلك على تقويض اساس سياسته الخاصة به وموقفه من التسوية في الشرق الاوسط؛ اذ ليس هنالك ما يزيد في صلف الاسرائيليين، ويدفعهم نحو المزيد من التطرف، مثل شعورهم بتعاظم موجات الهجرة القادمة اليهم، على طريق اقامة اسرائيل الكبرى. ولو تمّ ذلك وارتفع عدد المستوطنين اليهود في فلسطين كثيراً، لتوجب وضع كافة مشاريع «السلام» المطروحة، حالياً، في الدرج، والاستعداد لمواجهة وضع آخر جديد تماماً.

وقد يقال ان هنالك مبالغة ما في تقويم مسألة هجرة اليهود السوفيات الى اسرائيل؛ وقد يكون هذا القـول، ولو الى حد ما، صحيحاً. فخلال ما يزيد على مئة عام من النشاط الاستيطاني، لم تتمكن الصهيونية من توطين اكثر من ثلاثة ملايين ونصف المليون يهودي في فلسطين، على الرغم من الجهود المضنية التي بذلتها في هذا المضمار. والقول، اذاً، استناداً الى هذا السجل، ان اسرائيل ستستوعب مليوناً آخر من المهاجرين خلال عقد واحد فقط، يبدو نوعاً من «التجليط» والتبجح. فمثل هذا العمل يحتـاج الى ملايـين المـلايـين من الدولارات، وكذلك الى احداث تغييرات جذرية في بنية الاقتصاد الاسرائيلي، لا تقوى اسرائيل عليها، ولم تستطع، على كل حال، القيام بها خلال عقود مضت. كما ان مثـل هذا الاتجاه نحو الاهتمام بمهاجرين جدد، وصرف الاموال على استيعابهم من خلال تجاهل الاكثرية العددية الفقيرة من اليهود الشرقيين، قد يفجّر ازمات اجتماعية ـ سياسية لا طاقة لاسرائيل عليها. ويبدو، لذلك، ان ادعاءات بعض الدوائر الاسرائيلية حول استعدادها لاستيعاب اعداد كبيرة من المهاجرين شبيه بذلك النوع من الادعاء الذي يطلقه بعض العرب وبعض الفلسطينيين في دعوتهم الى مواجهة اسرائيل ومحاربتها، وهم لا يملكون من القوة ما يمكّنهم من ذلك. ولكن ذلك كله ينبغي الا يحملنا على الاستكانة والهدوء؛ اذ قد تحدث «المعجزة»، لسبب او لآخر، ويتم تهجير اعداد كبيرة فعلاً من اليهود السوفيات. وعندها ستعود نزعات التوسع، ومخططاته الى الظهور. ونعود، من حيث ابتدأنا، الى الصراع مع الصهيونية حول معطيات جديدة، ويصبح الماضي «تاريخاً» لا «اعتراض» عليه.

ومن هنا، لا ينبغي السكوت على ممارسات التهجير هذه؛ لا بالنسبة الى السوفيات، ولا لدى دوائر الشيطان الاكبر، خصوصاً وان له الكثير من الاتباع في العالم العربي، الذين يفترض ان تكون كلمتهم «مسموعة» لديه.